الامتيازات الألمانية في الدولة العثمانية:

من التعاون العسكري إلى التغلغل السياسي

لم تكن الامتيازات التي مُنحت للدول الأوروبية في الدولة العثمانية مجرد تسهيلات تجارية عابرة، بل تحوّلت مع مرور الزمن إلى تنازلات سيادية أضعفت خزينة الدولة وفتحت أبوابها للتدخل الخارجي. فبعد أن بدأت هذه الامتيازات بوصفها أدوات لتنشيط التجارة وجذب الخبرات، انتهت إلى ثغرات سياسية واقتصادية استغلتها القوى الأوروبية لبثّ الفتن بين مكوّنات المجتمع العثماني، وتشجيع النزعات الانفصالية، وإعادة تشكيل ولاءات الأقليات بعيدًا عن مركز الدولة.

> "القيصر والسلطان: لعبة النفوذ في المشرق العثماني"

وفي هذا السياق برزت ألمانيا قوةً صاعدةً تسعى إلى موطئ قدم في الشرق، فحصلت على امتيازات واسعة داخل الدولة العثمانية، شملت تدريب وتجهيز الجيش العثماني، والإشراف على مشاريع السكك الحديدية - وفي مقدمتها سكة حديد برلين بغداد - إلى جانب حق حماية البروتستانت، وإقامة مشاريع اقتصادية وعسكرية متنوعة. ولم يكن ذلك منفصلًا عن طموح ألمانيا إلى تحويل الدولة العثمانية إلى سوقٍ واسعٍ لمنتجاتها الصناعية، ومصدرٍ للمواد الخام التي تحتاجها نهضتها.

كانت العلاقة بين الطرفين تتجاوز ظاهر التحالف إلى شبكة من المصالح المتبادلة والإدارات المشتركة للنفوذ. وقد بدت بغداد، بما تمثّله من عمق جغرافي واستراتيجي، ساحة مفتوحة للحضور الألماني. والسؤال الجوهري هنا: كيف تداخلت المصالح الألمانية مع المشروع الصهيوني في تلك المرحلة؟ ضمن اتصالاته المتعددة، سعى ثيودور هرتزل إلى استمالة ألمانيا، فكانت له صلات بدوق ألماني، واجتماعات مع السفير الألماني في النمسا، ولقاءات مع وزير الخارجية الألماني، في محاولة للوصول إلى القيصر. وقد عرض هرتزل على ألمانيا دورًا ثقافيًا وسياسيًا في تسهيل دخول اليهود إلى الشرق، واعدًا بأن تكون لهم السيطرة على الأراضي الزراعية في فلسطين تمهيدًا للهجرة المنظمة إليها. وفي لقائه مع القيصر فيلهلم الثاني، أعرب هرتزل عن احترام عميق، وتحدث عن نجاح الحركة الصهيونية في إثارة الشعور القومي، وسعيها لإنشاء وطن قومي على أرض زراعية مزدهرة بالاستثمارات. أما رد القيصر فكان حذرًا؛ إذ أبدى اهتمامًا مشروطًا، معلنًا أنه سيضع الأمر في اعتباره، لكنه يريد ضمان رفاهية ومصلحة الدولة العثمانية. وهنا تتكثف الأسئلة: ما طبيعة هذه العلاقة؟ وأين تقف حدود المصالح؟.

أكد القيصر أنه لا يريد التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، وهو تصريح يثير الدهشة في ظل حجم الامتيازات الألمانية داخلها. وخلال زيارته لفلسطين عام (1898)، شدّد على أن الحكومة الألمانية تسعى إلى تحقيق الرفاهية في الدولة التركية ضمن الاحترام الكامل لسلطة السلطان. غير أن هذا الخطاب المفعم بالمجاملة يفتح أبواب التساؤل: هل كانت مصلحة المسلمين حقًا أولوية ألمانية، في زمنٍ كانت فيه القوى الأوروبية تقتسم بلدانهم؟ أم أن لغة التفخيم والتأكيد على أداة سياسية لتهدئة المخاوف، وضمان استمرار التغلغل الاقتصادي؟ وكيف يُربط بين مصلحة الدولة التركية ككيان قومي، وبين قوميات المسلمين المتعددة داخل الإمبراطورية؟ وهل من حق الأتراك – وفق هذا المنطق – أن يحكموا غير الأتراك باسم الخلافة؟.

ثم يأتي تصريح القيصر بقوله أن "الفكرة الجوهرية للصهيونية كانت تستهويني دومًا وتثير عطفي"، مقرونًا بقوله إن اليهود الناطقين بالألمانية قد يقدمون خدمات جليلة. هنا يتضح أن ألمانيا كانت تحاول كسب ودّ اليهود دون التفريط بعلاقتها بالسلطان، محافظةً على توازن دقيق يضمن لها النفوذ الاقتصادي في الأناضول وسائر الولايات.

ويشير وايد دفيد إلى أن الدولة الوحيدة التي سعى السلطان عبدالحميد إلى مصادقتها بإخلاص ومثابرة كانت ألمانيا، وأن زيارة القيصر عام (1898) مثّلت ذروة انحراف السياسة العثمانية عن اتجاهها التقليدي نحو بريطانيا. كما يوضح أن السلطان لم يكن يخشى التغلغل الألماني في الأناضول، باعتبارها قلب الإمبراطورية وأقل ولاياتها تعرضًا للتيارات الغربية.

تعززت العلاقات الألمانية–العثمانية منذ عام (1876) برفع مستوى التمثيل الدبلوماسي إلى سفارة، وبرزت داخل ألمانيا ثلاث رؤى تجاه مصير الدولة العثمانية: إذا تعززت القوة العثمانية، فإنها ستقف في وجه الأطماع الأوروبية، وهو ما يضمن التوسع الاقتصادي الألماني في الأناضول والأقطار العربية، كذلك المصير النهائي للدولة العثمانية هو أن تصبح محمية ألمانية، إضافةً إلى أن إنقاذ ألمانيا لن يتحقق إلا بتحرير البحار من الهيمنة البريطانية، وأن السيطرة على الدولة العثمانية خطوة مرتبطة بهذا الهدف الأكبر.

غير أن السلطان لم يدرك – أو لم يُرد أن يدرك – أن دخول ألمانيا ساحة التنافس لم يكن بدافع الوفاء، بل بدافع المزاحمة الاستعمارية. فالمساعدة الألمانية للدولة العثمانية في حربها مع اليونان عام (1897) لم تكن عملًا خيريًا، بل استثمارًا سياسيًا رأت فيه ألمانيا انتصارًا لها بقدر ما هو انتصار للعثمانيين.

وقد تكشفت أبعاد هذه السياسات حين تورطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، فكان الثمن انهيارًا اقتصاديًا وسياسيًا أفقدها قدرتها على الوقوف مجددًا كقوة فاعلة. وهكذا بدت الامتيازات الألمانية جزءًا من مسارٍ طويلٍ من التغلغل المنظم، الذي استثمر التحالف واللغة الدينية والقومية لتحقيق أهداف استراتيجية، دون الاصطدام المباشر بالقوى الأوروبية الأخرى، وبأقل الخسائر الممكنة.

إن قراءة هذه المرحلة تكشف أن التحالفات لم تكن بريئة، وأن الخطاب الودّي لم يكن إلا غطاءً لمعادلات قوة أعقد، وأن الامتيازات – حين تتجاوز حدودها – تتحول من أدوات تعاون إلى مداخل نفوذٍ يغيّر موازين التاريخ.

المراجع:

1. أحمد نزري النعيمي، الدولة العثمانية واليهود (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).
2. ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798 – 1939م، ترجمة: كريم عزقول، ط3 (بيروت: دار النهار للنشر، 1977).
3. صبري جريس، تاريخ الصهيونية (بيروت: مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية، 1977).
4. ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت: دار العلم للملايين، 1965).